أثر الفكر الصّوتي الخليلي في البناء المُعجمي

أ.د. أحمد طيبي، جامعة الدكتور طاهر مولاي بسعيدة، الجزائر.

تاريخ الإرسال: 2018/03/02 تاريخ القبول: 2018/05/21 تاريخ النّشر: 2018/06/12

ملخّـــــص

لا شكّ أنّ الجانب الصّوتي في الفكر الخليلي لمْ تكنْ أهميته مقصورةً فقطْ على صناعة معجم «العين»، بل امتدّ تأثيره إلى الصّناعة المعجمية بأكملها. فالخليل بن أحمد كان يؤمن إيمانا راسخا بأنّ الأصل في اللّغة إنّما هو في جانبها الصّوتي المنطوق، لذلك بنى معجمه على أساس فيزيولوجي ينظر إلى البنية اللّغوية باعتبار مكوّناتها الصّوتية الحقيقية. وعلى هذا الأساس يكون الخليل قدْ تمكّن منْ بناء نظرية معجمية متكاملة تقوم على أساس الجذر كأصل ثابت، تعتمد فكرة التّقليبات وما توفره من إمكانية الرّبط بين الصّوت المفرد والبنية اللّغوية للكلمة العربية، فضلا على توظيفها مقياس الكمّية في تبويب الكلمات، والتّدرّج المخرجي في ترتيبها.

الكلمات المفاتيح: الصناعـــــــة المعجمية، الترتيب الصّوتي، التّقليبات الصوتية، الجذر، الكمية الصّوتية.

Abstract

No doubt that the acoustic side, in Khalil thought, its importance was not limited to the manufacture of the lexicon of EL Aine, but its influence extended to the whole lexicon industry. Khalil Bin Ahmed believed firmly that the origin of the language is in its acoustic side, so he built his dictionary on a physiological basis looking at the structure of the language as its real sound components. On this basis, Khalil has been able to construct an integrated lexical theory based on root as a fixed asset, adopts the idea of permitation and what it provides of the possibility of linking the single sound and the linguistic structure of the Arabic word, as well as using the quantitative scale in the words tab, and the ranking of the articulation points in their order.

Key words: Lexicography, Ranking of language sounds, Sounds permutation, Root, Word size.

إنّ الباحث في الدّراسات اللّغوية العربية بصفةٍ عامّة والمعجمية بصفة خاصّة التي سبقت الخليل أو تزامنتْ مع عصره يجد أنّ الدّافع إليها كان دينياً بحتاً، هو السّعيُ لفهم لغة النّص القرآني والسّنّة النّبوية من حيث كان فهمُ لغتهما سبيلاً إلى فهم واستيعاب الأحكام الشّرعية المختلفة التي يترجمها كلٌّ منهما[1] من جهةٍ، ثمَّ حفظها ممّا بدأ يتهدّدها من مخاطر اللّحن وتفشّي العجمة، وظهور فساد الإعراب نتيجة اختلاط العرب بغيرهم، حتّى وصل الأمر إلى الخطأ في قراءة بعض الآيات القرآنية كالذي رُوي عن أحدهم أنّه قرأ الآية الكريمة ﴿**أنّ اللهَ بَريءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**﴾[2] فلحن فيها عندما كسر (لام) «رسوله» بَدلاً من ضمّها، فأصاب اللغة في أصواتها كما أصابها في معناها ودلالتها.[3]

ويبدو أنّ هذا التّوجّه الدّيني المرتبط بالعقيدة كان سمةً عامّةً ميّزتْ كثيراً من البدايات الأولى للدّراسات اللّغوية في أصقاع مختلفةٍ من العالم، فقدْ بدأ الهنود بحوثهم اللّغوية لخدمة كتابهم المقدّس المسمّى بـ «الفيدا»، وكانتْ نشأة المعاجم الصّينية نتيجةً لاهتمام الصّينيين بدراسة النّصوص الدّينية البوذية، كما كان لانشغال اليونان بالبحث في الشّعر الدّيني والحماسي عندهم فضلٌ في التّأليف اللّغوي، ولمْ تخرج الانطلاقة الحقيقية للدّراسة اللّغوية والنّحوية العبرية عن هذا المساق.[4]

فكان من الطّبيعي والحالة هذه أنْ يبدأ المعنيون بدراسة اللّغة العربية بجمع التّراث اللّغوي المنطوق من خلال الاتّصال المباشر بالبادية والشّروع في رحلة البحث العلمي عنْ طريق الانتقال بين القبائل العربية الفصيحة لحفظ ورواية نصوص الشّعر، والخطابة، والأمثال، والحكم، وأقوال البلغاء والفصحاء من أفواه الأعراب كمرحلة أولى، تلتها مباشرةً مرحلة التّقييد والتّدوين المنظّم الذي اعتمد منهجاً واضحاً في ترتيب المادّة المجموعة وتبويبها وتصنيفها تبعاً لانتمائها إلى مجالٍ معيَّنٍ من مجالات الحياة المختلفة، وإخراجها في شكل رسائل خاصّةٍ حملتْ عناوين مختلفة منها: النّبات، والشّجر، والإبل، والخيل، والحيوان، والغريب، والاضداد ...وغيرها.[5]

وقد ضمّتْ مادّةً لغويةً ضخمةً مثّلتْ البذور الأولى والإرهاصات السّابقة للتّأليف المعجمي العربي الذي بدأ بعد النّصف الثّاني من القرن الثّاني الهجري على أيدي نخبةٍ من العلماء يتقدّمهم الخليل بن أحمد الفراهيدي (100 هـ ــ 175 هـ) صاحب أوّل معجمٍ عرفته اللّغة العربية وهو معجم «العين»، ويمكن اعتباره أوّل محاولة أراد بها صاحبها «حصر ألفاظ اللّغة العربية على نحوٍ شاملٍ، وفي إطار نظامٍ منهجيٍّ واضحٍ له أسسه وقواعده المضبوطة.»[6]

والحديث عن الخليل يضيق به المجال في صفحاتنا هذه، وإنْ أردنا أن نذكره ببعض الألفاظ التي لا توفيه حقّه في الواقع، لقلنا إنّه شخصيةٌ عبقريةٌ أبدعتْ في جميع ميادين اللّغة، من أصغر وحداتها الذي هو الصّوت، إلى تراكيبها وجملها. فقدْ كانتْ أفكاره وآراؤه ــ في هذا المجال ــ أساس أقدم مؤلّفٍ عرفته العربية في النّحو واللّغة، صنعه تلميذه سيبويه وسمّاهُ «الكتاب». والخليل هو واضع علم العروض بتحديده لبحور الشّعر العربي وموازينه، كما يُعرف عنه أنّه صاحب طريقة ضبط الحروف بالشّكل التي نستخدمها إلى اليوم، بالإضافة إلى تذوُّقه لفنّ الموسيقى والنّغم الذي ساعده على ترتيب أصوات اللّغة العربية ترتيباً مخرجيّاً، وعقليته الرّياضية الحسابية التي كان لها الوزن الكبير في بناء معجم «العين».[7]

وما يمكن أن يحسب لهذه الصّفات كلّها التي ميّزت شخصية الخليل العبقرية الفذّة، أنّ معجم «العين» استفاد ــ في بنائه ــ من جميعها. وقدْ كان هدفه من وراء هذا التّأليف أنْ يُحصِيَ مواد اللّسان العربي بطريقة حسابية، فلا يغيب عنه شيءٌ منها، ولم يجمع مفردات اللّغة كما فعل أقرانُه عن طريق استقراء ألفاظ اللّغة ونقلها من أفواه الرّواة ومن المؤلّفات الموجودة، وإنّما أحصاها بطريقةٍ منطقيةٍ رياضيةٍ يعتمد فيها ما يُعرف في الرّياضيات بباب «الاحتمالات». فبعد ترتيب الأصوات اللّغوية وفق مخارجها النّطقية، لاحظ أنّ الكلمة العربية قد تكون (ثنائية)، أو (ثلاثية)، أو(رباعية)، أو(خماسية)، وإذا أمكن تقليب الأصوات العربية الثمانية والعشرين إلى أوْجهها الممكنة في هذه الحالات الأربع، يكون الحاصل معجماً يضمُّ بين دفّتيه ما يمكن للّغة أنْ تسِعه من النّاحية النّظرية.[8]

يقول اللّيث: «كنتُ أصير إلى الخليل بن أحمد فقال لي يوماً: لو أنّ إنساناً قصدَ وألَّفَ حروف: ألف، وباء، وتاء، وثاء، على ما أُمثِّله، لاستوعب ــ في ذلك ــ جميع كلام العرب، فتهيّأ له أصلٌ لا يخرج شيءٌ منه البتّة، قال: فقلتُ له: وكيف يكون ذلك؟ قال: يؤلّفه على الثّنائي، والثّلاثي، والرّباعي، والخماسي، وأنّه ليس يُعْرف للعرب كلامٌ أكثر منه، قال اللّيث: فجعلت أستفهمه ويصف لي ولا أقف على ما يصف، فاختلفت إليه في هذا المعنى أيّاماً، ثمّ اعتلّ، وحَجِجْتُ، وما زلت مشفقاً عليه، وخشيت أنْ يموت في علّته فيبْطُل ما كان يشرحه لي، فرجعتُ من الحجّ، وصِرتُ إليه، فإذا هو قد ألّف الحــروف كلّها على ما في صدر هذا الكتاب.»[9]

ويقول الخليل: «اعلم أنّ الكلمة الثّنائية تتصرّف على وجهين...والكلمة الثلاثية تتصرّف على ستّة أوجهٍ...والكلمة الرّباعية تتصرّف على أربعةٍ وعشرين وجهاً، والكلمة الخماسية تتصرّف على مائةٍ وعشرين وجهاً.»[10]

وبعد حصره لتعداد اللّغة النّظري، كان لابدّ للخليل أن يميّز بين ما هو موجودٌ منها بالفعل، وما هو غير ذلك، وقد مكّنتْه ثقافتُهُ اللّغوية الخصبة، وخبرته الصّوتية الواسعة، ومعرفته بالتّجمّعات الصوتية المقبولة وغير المقبولة في اللّغة العربية من ذلك، وبهذا يكون قد عرض المادّة اللّغوية على القوانين الصّوتية الفونولوجية وحكمَ بها عليها.[11]

إنّ أهمية الجانب الصّوتي في صناعة معجم «العين» تبدو واضحةً في فكر الخليل، ذلك لأنّه كان يؤمن إيماناً راسخاً بأنّ الأصل في اللّغة إنّما هو جانبها الصّوتي المنطوق، وأمّا الرّسم والكتابة فما هي إلّا محاولة تعويضية تقريبية تكون عاجزةً بالوفاء للتّسجيل الصّوتي الواقعي للّغة في كثيرٍ من الأحيان. وعلى هذا الحال، فلم يكن بدْعاً أنْ بنى معجمه على أساسٍ فيزيولوجي ينظر إلى البنية اللّغوية باعتبار مكوّناتها الصّوتية الحقيقية ولا يُعير أيَّ اهتمامٍ لشكلها ومظهرها الحرفي.[12]

فإذا كان هدف الخليل من وراء بناء معجمه هذا هو استقصاء كلام العرب كما ذكرنا، فإنّه لابدّ أنْ يتوفّر له عندئذٍ منهجٌ يتيح له بلوغ غايته وتحقيق مقصده، فكانت أولى الخطوات التي يقوم بها في هذا الشّأن هي تصنيف الأصوات العربية وترتيبها ترتيباً مخرجيّاً، وهو ترتيبٌ ابتدعه بعد دراسةٍ ذوقية علمية اعتمد فيها على جهاز النّطق، فعرف موضع كلٍّ منها، لأن الخليل كان قد تذوّق الأصوات بلسانه وتلمّس صفاتها بأذنه المرهفة التي كثيراً ما ترنّمت بجرس التّلاوة الشّريفة، ووقْع الشِّعر، وموسيقى الكلمات.

إنّ هذا التّرتيب المخرجي الذي ابتدعه الخليل يكرّس أهمية الجانب الصّوتي في اللّغة عنده، ويبيّن عدم جدوى التّرتيبين المعروفين في وقته؛ التّرتيب الأبجدي الموروث عن السّامية، والتّرتيب الألفبائي الذي وضعه نصر بن عاصم اللّيثي (ت 89 هـ).[13]

إنّ عزوف الخليل عن هذين التّرتيبين وعدم تسليمه بهما، يرجع إلى اقتناعه بأنّ التّرتيب الأبجدي لا يعدو كونه ترتيباً تعليمياً يساعد على حفظ الحروف واستظهارها أكثر منه ترتيباً علميّاً يخضع لنظامٍ محدّدٍ، والأمر نفسه يقال على التّرتيب الألفبائي الذي يقوم فقطْ على أساسٍ منْ تشابه أشكال الحروف في الكتابة [14]، ومن ثمّ تأكّد له أنّ التّرتيب الصّوتي لحروف اللّغة العربية وفق مخارجها ابتداءً من أقصاها في الحلق إلى أدناها من الشّفتين، هو التّرتيب العلمي المقبول القائم على نظامٍ محدّدٍ تدرك بوساطته عملية النّطق وما لها من صلةٍ باللّغة والكلام. [15] ولم يتسنّ له ذلك إلّا بعد أنْ «نظر إلى الحروف كلّها وذاقها فوجد أنّ مخرج الكلام يبدأ من الحلق، فصيّر أولاها بالابتداء أدخل حرفٍ منها في الحلق.»[16]

ويبدو أنّ فكرة «عزل الصّوت» بعيداً عن البنية اللّغوية لتذوُّقه، كانت سنداً حقيقياً للخليل في تصنيفه لأصوات اللّغة العربية، ذلك أنّه كان يختار سكون الصّوت على حركته في تحسُّسه له، لأنّه كان يشعر أنّ الحركة بإمكانها أنْ تجذب الصّوت عن موضعه، وتحرّكه عن جهته التي يخرج منها، فيفْلت منه تحديد مكانه.[17]

ويكون بهذا الشّكل قدْ تهيّأ للخليل ترتيب الأصوات العربية ترتيباً يتساوق واتّجاه تيار الزّفير من الرّئتين إلى الشّفتين، فوجد أنّ أعمق الأصوات هي أصوات الحلق فبدأ بها، «ولم يكتف بذلك، بل رتّب أصوات الحلق فيما بينها، فوجدها ذات ثلاثة مخارج هي (الهمزة والهاء)، ثمّ (العين والحاء)، ثمّ (الغين والخاء)، وقد كان من المتوقّع إذن أنْ يبدأ الخليل معجمه بـ (الهمزة) ... لكنّه عدل عن ذلك وبدأ بصوت (العين) ... لأنّ الهمزة صوتٌ معرَّضٌ للتّغييرات مثل التّسهيل أو الحذف، فلمْ يشأ أنْ يبدأ بها، ووجدَ أنّ الهاء صوتٌ مهموسٌ خفيٌّ فلمْ يشأ أيضاً أنْ يبدأ بها، وانتقل إلى الحيّز الثّاني من أصوات الحلق، فوجد فيه (العين والحاء) فبدأ بالعين لأنّها أنصع وأوضح.»[18] يقول اللّيث: «فلمْ يمكن أن يبدأ التّأليف من أوّل: ا، ب، ت، ث، وهو الألف، لأنّ الألف حرفٌ معتلٌّ، فلمّا فاته الحرف الأوّل، كرِه أنْ يبْتدئَ بالثّاني وهو الباء إلّا بعد حجّةٍ واستقصاء النّظر، فدبّر ونظر إلى الحروف كلّها وذاقها، فصيّر أولاها بالابتداء أدخل حرفٍ منها في الحلق.»[19] فكان أن رتّب الأصـــوات وفق الشّكل التّالي: ع ح ه خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م / و ا ي ء /.[20]

وبعد اكتمال ترتيب الأصوات اللّغوية على أساس مخارها من أقصاها في الحنجرة إلى أدناها في الفم، راح يستقصي أبنية كلام العرب بالنّظر إلى أصولها المحصورة بين (الثّنائية)، و(الثُّلاثية)، و(الرّباعية)، و(الخماسية)، ولم يكن بين الأصول ما خرج عن هذا التّحديد فيَنقُصَ عن الثّنائي أو يزيد عن الخماسي، وما كان غير ذلك، فهو غير أصيلٍ في العربية.[21]

وبعد أنْ حدّد الخليل مباني الكلمة العربية والأصول الثّابتة التي يقوم عليها معجمه ممثّلة في الجذر، عادَ لينظر في طبيعة الأصوات في تلك الأبنية حين ترابط بعضها مع بعض في السّلاسل الكلامية بعد إدراكه لسرّ وظيفة الصّوت في تشكيل الألفاظ والكلمات باعتبار هيآتها وأنماطها التي تتوزّع بين الثّنائي، والثّلاثي، والرّباعي، والخماسي، حتّى يحصل له حصر عدد الأصول الممكنة من كلّ نمطٍ من الأنماط السّابقة، ويتعرّف على كمّيتها الممكنة في كلّ بابٍ من الأبواب التي يتألّف منها معجمه «العين»، فكان أنْ اهتدى إلى فكرة «التّقليبات» وما توفّره من إمكانية تبادل الأصوات لمواقعها داخل البنية اللّغوية الواحدة.

ولاشكّ أنّ فكرة التّقليب على النّحو الذي وضعه الخليل عندما مزج بين جانبين؛ الجانب المنطقي الرّياضي والتّحليل اللّغوي، يضعه في مصاف الرّواد لهذا اللّون من التّفكير العلمي في اللّغة الإنسانية.[23]

وهي الفكرة التي استغلّها ابن جنّي (ت 392 هـ) مستفيداً منها فيما أسماه «الاشتقاق الأكبر» (24)، فقد كان يعتقد «أنّ اللّغة بأصواتها التي تمثّلها الأبجدية، إنّما تُقدِّم احتمالات لا نهاية لها من الألفاظ التي ترمز إلى معانٍ.»[25]

إنّ مفهوم التّقليبات هذا ينْبني في أساسه على الرّبط المحكم بين الصّوت المفرد والبنية اللّغوية للكلمة العربية، ذلك لأنّ اللّفظ العربي يخضع في بنائه لنظامٍ مُحدَّدٍ، وموسيقى واضحة، ومميّزات خاصّةٍ إذا التزم بها صُنِّفَ في قائمة «الفصيح»، وإذا شذَّ عنها كان من «الدّخيل» أو «المعرَّب» أو غيره.

والأكيدُ أنّ هذا النّظام الصّوتي الذي اعتمده الخليل قاصِداً من ورائه الحكم على الكلمة العربية وتحديد مدى نسبتها إلى فصيح اللّغة، يُنْبِئُ ـ دون شكٍّ ـ على نظريّةٍ صوتيةٍ متكاملة ومعرفةٍ واسعة بالتّجمّعات الصّوتية وخصائصها، وتأثير بعضها في بعض داخل البنى التّركيبية، وهو ما لمْ يسبق أنْ عرف البحث اللّغوي العربي مثله، بلْ هو ثورةٌ أنجبتْ مفاهيم ومصطلحاتٍ، وعالجتْ منهجاً ومبادئ توازي في كثيرٍ من جوانبها ما جاءتْ به الفونولوجيا في العصر الحديث.[26]

وإذا أردنا أنْ نحصُرَ جوانب هذا النّظام الذي تقوم عليه الألفاظ في موسيقاها وفي تجانس أصواتها بعضها مع بعض أوْ تنافرها، وفي إمكانية دخول بعضها في بناء معيّنٍ أو عدمه، أمكننا تحديده كالآتي:

أ – ذِكْرُهُ أنّ اتّحاد مخارج الأصوات أو تقاربها، من العلل المانعة لدخول صوتين في بناءٍ واحدٍ، وقد يكون ذلك مدعاةً إلى عدّه من الدّخيل على العربية، أوْ إهماله مباشرةً، يقول: «لا يجتمع في كلّ واحدةٍ ثلاثة حروفٍ أصليةٍ من مخرجٍ واحدٍ كالحروف الشّفويّة (ف، ب، م)، فإنّها لا تُرى مجتمعةً في كلمةٍ واحدةٍ، ولكنْ إذا تباعدتْ الحروف الأصول فإنّ اجتماعها في كلمةٍ جائزٌ.»[27]

وهو الأمر الذي أكّده ابن جنّي عندما قال: «واعلمْ أنّ هذه الحروف كلّما تباعدتْ في التّأليف كانتْ أحسن، وإذا تقارب الحرفان في مخرجهما، قَبُح اجتماعهما.»[28]، ذلك أنّ الجمع بين الأصوات المتقاربة المخارج أثقل على اللّسان وأعصى على السَّمع، «فإنّ اللّفظ من قبيل الأصوات، والأصوات منها ما تُسْتَلَذُّ النّفس بسماعه، ومنها ما تكره سماعه.»[29] وعلى هذا الأساس حُكم على أنّ:

العين والحاء لا يأتلفان في كلمةٍ واحدة لما يجمعهما من اتّحاد المخارج إلّا أنْ يدخلا في بناء فعلٍ منحوتٍ من كلمتين أو أكثر مثل: حَيْعَلَ، وهو حكاية جملة «حيَّ على الصّلاة» أوْ «حيَّ على الفلاح.»[30] ولعلّ السبب في عدم الجمع في تأليفٍ واحدٍ بين أصوات الحلق يعود إلى شدّة تقارب مخارجها. يقول: «ولولا بحّةٌ في الحاء لأشبهتْ العين»[31]، فلذلك لم تأتلفا في كلمةٍ واحدةٍ إلّا مفصولاً بينهما، وكذلك الهاء. وكذلك الحال مع (العين والغين)، ومع (الهاء والحاء)، فهنّ مهملاتٌ لتقاربها في المخرج.

الخاء والعين لا يجتمعان في البنية اللّغوية إلّا نادراً، ولوْ حدث ذلك لكان بشرط تقدّم الخاء على العين، لذلك ردّ الخليل كلمة «الهُعْخُع» ولم يعدّها من كلام العرب، لأنّه لم يُسمع عن العرب كلمة اجتمعتْ فيها الخاء والعين إلّا وكانتْ الخاء قبل العين مثل: نَخَعَ، وبَخَعَ.[32]

القاف والكاف لا يجتمعان في كلمةٍ واحـــــــــدة، وتأليفهما مهملٌ في النّظام الفونولوجي العربي لاتّحاد المخرج.[33]

القاف والجيم لا يحسُنُ تأليفهما إلّا بحاجزٍ يفصلهما.

الضّاد والكاف لا يأتلفان في الأسماء ولا الأفعال إلّا مفصولاً بينهما بصامتٍ مثل: الضّحك، والضّنَك.

ب – استلهام الخليل لقانون صوتي آخر كان له دوره الفاعل في الحكم على المستعمَل في اللّغة من مُهمَلها، وأسباب الإهمام، ومسوّغات استعمال وتردّد أصواتٍ بعينها دون غيرها، إنّه «قانون الأصوات الذّلقية»، وهو يخصّ ستّة أصواتٍ متوزّعة بين أصوات ذلق اللّسان، وأصوات الشّفة، وهي كما حدّدها الخليل (الرّاء، واللّام، والنّون، والفاء، والباء، والميم)[34] ورأى أنّها أسهل من غيرها في النّطق لذلك كثر دورانها في أبنية الكلام، واشترط وجودها بخاصّةٍ في البناء الرّباعي والخماسي لثقله وخفّتها، فلا يجب أنْ يُعرّى أحدهما منها. يقول: «إنْ وردَتْ عليك كلمةٌ رباعيةٌ أو خماسيةٌ مُعرّاةٌ من الحروف الذّلق أو من الشّفوية ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرفٌ واحدٌ أو اثنان أو فوق ذلك، فاعلمْ أنّ تلك الكلمة مُحدثةٌ مُبْتدعةٌ ليستْ من كلام العرب.»[35] وقد أكّد ابن جنّي بعده ذلك عندما قال: «وفي هذه الحروف السّتة سرٌّ طريفٌ يُنْتفعُ به في اللّغة، وذلك أنّه متى رأيتَ اسماً رباعياً أو خماسياً غير ذي زوائد، فلابُدّ فيه من حرفٍ من هذه الستّة أو حرفين، وربّما كان فيه ثلاثة، وذلك نحو: جَعْفر؛ ففيه الفاءُ والرّاء، وسَفَرْجل؛ ففيه الفاء والرّاء واللّام، وفَرَزْدق؛ ففيه الفاء والرّاء...فمتى وجدتَ كلمةً رباعيةً أو خماسيةً مُعرّاةً من بعض هذه الحروف السّتة، فاقضِ بأنّها دخيلٌ في كلام العرب وليستْ منه.»[36]

إنّ فكرة خفّة الأصوات الذّلقية وسيولتها في البناء اللّغوي وكثرة شيوعها في اللّسان العربي، بإمكانها أنْ تُفسِّرَ لنا جانباً لا بأس به من التّطوُّر اللغوي الذي شهدته اللّغة في ماضيها وتشهده في حاضرها، فالمتكلِّمُ العربي اليوم يحاول ـ ما أمكنه ذلك في توصيل الدّلالة ـ أنْ يستعمل ألفاظاً سهلةً على نطقه مستساغة على لسانه، تتردّد فيها الأصوات الذّلقية، وينفر من غيرها من الكلمات التي تضمّ الأصوات التي يسْتَعْصي نطقها عليه كالأصوات المُطبقة (ص، ض، ط، ظ)، والأصوات الأسنانية اللّثوية كـ(الثّاء والذّال).

وبهذا يكون الخليل ـ بعد تحكيمه لهذه القوانين الصّوتية وفرضها على البنية اللّغوية في اللّسان العربي وتمييزه بوساطتها بين المُسْتعمَل والمُهْمَل، قدْ أحكمَ جمعَ مادّة معجمه لا ينقصه الآن غير ترتيب مداخلها، «غير أنّ أهمّ ما نلاحظه على ترتيب الخليل هذا لمباني الكلمة العربية أنّه أقامه على عدّ الصّوامت دون الصّوائت، لأنّه كان يرى في الصّوائت القصيرة (الفتحة، والضّمّة، والكسرة) زوائد على البناء...وأنّ الأصل في البناء هو الصّوامت...ولكن قدْ يكون إهمال الصّوائت له ما يبرّره، إذْ لابدّ من ترتيب المداخل على أصلٍ ثابتٍ لا يتغيّر، وهو ما عبّر عنه المعجميون حديثاً باسم الاشتراك في المادّة أو البناء الأساسي.»[37]

وكان أن اتّبع الخطوات التّالية:

1/ تقديم ترتيب الكلمات حسب أسبقية أصواتها في السُّلَّمِ المخرجي الذي ارتضاه مبتدئاً بالأعمق في الحنجرة إلى الأخرج في الشّفتين، فوجد أنّ «العين» هي أقصى ما يمكن يصدره جهاز النّطق عند الإنسان، فبدأ بها وجعلها أوّل بابٍ يفْتتح به معجمه، ثمّ باب الحاء، ثمّ باب الهاء...إلى آخر التّرتيب الذي يتوقّف عند باب (الواو والألف والياء والهمزة)، وهو آخر بابٍ من أبواب المعجم.

2/ ترتيب الكلمات تبعاً لأصواتها الأصلية فقطْ بقطْع النّظر عن الأصوات الزّائدة بها، وهو المبدأ الذي وظّفه المعجميّون بعد الخليل.

3/ ردُّهُ المعتلّ في الكلمات إلى أصله، والجَمعُ إلى مُفرده، حتّى يظهرَ جذرُ الكلمة فيرتّبها على أساسه. فمثلاً كلمة (عطايا) بعد ردّها إلى المفرد تصبح (عطيّة)، ثمّ يتمّ تجريدها من الزّوائد (الياء الثّانية والهاء)، وبعد إعادة (الياء الأولى) إلى أصلها (الواوي)، يكون الجذر على الهيئة (عطو) فيرتّبه في باب العين.

4/ اعتماده مقياس الكمّية في تبويب الكلمات وترتيبها، فكلّما خاض في بابٍ من أبواب معجمه إلّا وبدأه بالثّنائي، ثمّ يتلوه بالثّلاثي، ثمّ الرّباعي، فالخماسي.

ورغم ما أحاط بعض هذه القواعد التي بنى عليها الخليل معجمه من الصّعوبة وما اكتنفها من العُسر، إلّا أنّنا وجدنا عدداً غير قليل من كبار علماء اللّغة والمعاجم قد اقتفَوا أثره وساروا على طريقه فرتّبوا معاجمهم على أساس منهجه، فكان منهم من التزم به جميعاً كالصّاحب بن عبّاد (ت 385 هـ) مؤلّف معجم «المحيط»، وابن سيدة (ت 458 هـ) صاحب معجم «المُحكم»، ومنهم مَن أدخلَ بعض التّعديلات الخفيفة عليه كالقالي (ت 356 هـ) الذي أقام معجمـــــــه «البارع» على أساس التّرتيب الصّوتي عند سيبويـــه.[38]

ولم يقفْ تأثير «العين» عند هؤلاء المعجميين ممّن رتّبوا معاجمهم على أساسٍ صوتي، بلْ تعدّاه إلى تلك الفئة التي اختارتْ التّرتيب الهجائي وبخاصّةٍ ما يخص اعتماد (الجذر) أصلاً في ترتيب المداخل، بلْ إنّه لمن الإنصاف أنْ نذكر أنّ معجم «العين» قد وصل تأثيره حتّى إلى المعاجم الحديثة، بلْ ومن الإنصاف كذلك أنْ نذكر أسبقيته وتأثيره في الدّراسة اللّغوية العامّة بقسميها (علم المفردات: Lexicologie)، و(فنّ صناعة المعاجم: (Lexicographie).[39]

هوامش المقال:

(1) ينظر: عبده الرّاجحي، فقه اللّغة في الكتب العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1988، ص: 34.

(2) التّوبـــة، الآية 3.

(3) ينظر: رشيد عبد الرحمن العُبيدي، العربية والبحث اللّغوي المعاصر، المجمع العلمي، بغداد،د.ط، 2004، ص: 6. وينظر كذلك: أحمد طيبي، وظيفة الاقتصاد المورفونولوجي في التّواصل اللّساني، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في اللسانيات، جامعة تلمسان، 2003، ص: ج.

(4) ينظر: أحمد مختار عمر، البحث اللّغوي عند العرب مع دراسة لقضية التّأثير والتّأثُّر، عالم الكتب، القاهـــــــــرة، ط7، 1997، ص: 80.

(5) ينظر: العربية والبحث اللّغوي المعاصر، ص: 70-69.

(6) سعيد حسن بحيري، المدخل إلى مصادر اللّغة العربية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهـــــــــــــــرة، ط1، 2001، ص: 255.

(7) ينظر: السّابق، نفس الصّفحة، وينظر: البحث اللّغوي عند العرب، ص: 178، وينظر كذلك: خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللّسانيات، دار القصبة للنّشر، الجزائر، د.ط.، 2000، ص: 135.

(8)ينظر: البحث اللّغوي عند العرب، ص: 179، وينظر كذلك: محمد أحمد أبو الفرج، المعاجم

اللّغوية في ضوء دراسات علـــــــم اللّغة الحديث، دار النّهضة العربية، ط1، 1966، ص: 33.

(9) الخليل بن أحمد الفاراهيدي، العين، تحقيق: مهدي مخزومي وإبراهيم السّمرائي، دار الرّشيد للنّشـــر، العراق، د.ط.، 1980، 1/52.

(10) السّابـــــــــــــــــــــــق، 1/59.

(11) ينظر: البحث اللّغوي عند العرب، ص: 179.

(12) رجب عبد الجواد إبراهيم، دراســــــات في الدّلالة والمعجم، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيـــــــــــــع، د.ط.، 2001، ص: 162.

(13) ينظر: المعاجم اللّغوية في ضوء دراسات علم اللّغة الحديث، ص: 40، وينظر: حلمي خليل، مقدّمة لدراسة التّراث المعجمي اللّغوي العربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط.، د.ت.، ص: 128.

(14) ينظر: محمد علي عبد الكريم الرديني، المعجمات العربية؛ دراسة منهجية، دار الهدى، الجزائر، ط2، 2006، ص: 46.

(15) ينظر: مقدمة لدراسة التّراث المعجمي العربي، ص: 129-128.

(16) العـــــــــين، 1/47.

(17) ينظر: مقدمة لدراســــــة التّراث المعجمي العربي، ص: 130.

(18) البحث اللّغوي عند العـــــــــــــــــرب، ص: 189.

(19) العـــــــــين، 1/47.

(20) العربية والبحث اللّغوي المعاصـــــــــــــــر، ص: 114.

(21) ينظر: العـــــين، 1/55.

(22) مقدمة لدراسة التّراث المعجمـــــــــــــي العربي، ص: 137.

(23) ينظر: السّابق، ص: 141، وينظر كذلك: ابن حويلي الأخضر مديني، المعجم اللّغوي العربي من النّشأة إلى الاكتمال، دار هومة، الجزائر، د.ط.، 2003، ص: 74.

(24) ينظر: ابن جنّي، الخصائص، تحقيق: محمـــــــــــــــــد علي النّجار، المكتبة العلمية، د.ط.، د.ت.، 2/133.

(25) فقه اللّغة في الكتـــــــــــــــــــب العربية، ص: 164.

(26) ينظر: المعجم اللّغوي العربي من النّشأة إلى الاكتمال، ص: 56-55.

(27) العين، 1/58.

(28) ابن جنّي، سرّ صناعة الإعراب، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلـــــــــــــــم، دمشق، ط1، 1985، 1/41.

(29) جلال الدّين السّيوطي، المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، شرح وتعليق: محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط.، د.ت.، 1/187.

(30) ينظر: عزّة حسن غراب، المعاجم العربية؛ رحلة في الجذور والتّطوّر والهوية، مكتبة

نانسي، دمياط، د.ط.، د.ت.، ص: 113، وينظر كذلك: غانم قدوري الحمد، المدخل إلى علم أصوات العربية، المجمع العلمي، بغداد، د.ط.، 2002، ص: 6.

(31) ينظر: العين، 1/75.

(32) ينظر: مقدمة لدراسة التّراث المعجمي العربي، ص: 139.

(33) ينظر: المعاجم العربية، ص: 116.

(34) ينظر: العين، 1/58.

(35) ينظر: السّابق.

(36) سرّ صناعة الإعراب، ص: 65-1/64.

(37) ينظر: مقدمة لدراسة التّراث المعجمي العربي، ص: 142، وينظر: المعاجم العربية، ص: 116.

(38) ينظر: السّابق، ص: 158.

(39) ينظر: المعجم اللّغوي العربي، ص: 50.